سؤال المدينة في الفكر الشرقي القديم

The question of the city in the ancient eastern thought

محمد بن علي[1]

جامعة أحمد زبانة –غليزان- الجزائر

تاريخ الاستلام: 2020/09/12 تاريخ القبول: 2020/09/30 تاريخ النشر: 2020/12/30

الملخص:

في تاريخ الفكر الفلسفي الحديث نلمس اليوم تلك الموجة من الدراسات التي حاولت الانخراط في الشأن اليومي باعتباره سؤال لصيق بمصير الإنسان وما يتهدده من مخاطر.

في ظل هذا المنحى يبرز للتداول الفلسفي سؤال يموضع المدينة موضع البحث الفلسفي لا على نمط مدينة أفلاطون الفاضلة"، ولكن من خلال اعادة مراجعة طبيعة العلاقة الملتبسة بين الفلسفة والمدينة، في ضوء التحوّلات التي مسّت من جهة المدن، ومن جهة أخرى التفكير الفلسفي، كما أن الراهن وما يقتضيه من حلول ومقاربات يثير أكثر الحاجة إلى قطع هذه الفواصل بين الفلاسفة والمجتمع، لخلق ثقافة عقلانية مبنية على الاختلاف في ظل أفق التعايش .

الكلمات المفتاحية: الفلسفة، المدينة، التواصل، الأنا ، الأخر

Abstract :In the history of modern philosophical thought, we see today that wave of studies that attempted to engage in daily affairs as a question related to the fate of man and the dangers he threatens.

In light of this trend, a question arises for the philosophical deliberation that places the city into the subject of philosophical inquiry, not in the manner of Plato's utopian city, "but by re-reviewing the nature of the ambiguous relationship between philosophy and the city, in light of the transformations that have affected on the one hand cities and on the other hand philosophical thinking. The current and the solutions and approaches it entails raises more the need to cut these separations between philosophers and society, to create a rational culture based on difference in light of the horizon of coexistence.

Key words: philosophy, the city, communication, the ego, the other

[1]محمد بن علي، أستاذ محاضر قسم (أ)، جامعة غليزان، mohamedbenali912@gmail.com.

–المهني: mohamed.benali@cu-relizane.dz– مخبر الانتماء: مختبر الأبعاد القيمية والتحولات الفكرية والسياسية ، جامعة وهران(2).

1- مقدمة:

في تاريخ الفكر الفلسفي الحديث نلمس اليوم تلك الموجة من الدراسات التي حاولت الانخراط في الشأن اليومي- عوض الاهتمام بالقضايا الفلسفية الكبرى على غرار ما عرفته الفلسفات النسقية - باعتباره سؤال لصيق بمصير الإنسان وما يتهدده من مخاطر.

في ظل هذا المنحى يبرز للتداول الفلسفي سؤال يموضع المدينة موضع البحث الفلسفي لا على نمط مدينة أفلاطون الفاضلة"، ولكن من خلال اعادة مراجعة طبيعة العلاقة الملتبسة بين الفلسفة والمدينة، في ضوء التحوّلات التي مسّت من جهة المدن، ومن جهة أخرى التفكير الفلسفي، كما أن الراهن وما يقتضيه من حلول ومقاربات يثير أكثر الحاجة إلى قطع هذه الفواصل بين الفلاسفة والمجتمع، لخلق ثقافة عقلانية مبنية على الاختلاف في ظل أفق التعايش .. من هذه المقدمة نريد ان نتساءل :

- ما طبيعة العلاقة بين الفلسفة والمدينة؟

- وكيف يمكن للمدينة ان تكون موضوعا للفلسفة ؟

هل التفكير الفلسفي في المدينة يأخذ طابع العالمية أم الخصوصية؟

2- مفاهيم البحث

ترجع لفظة مدينة إلى كلمة« دين » وأن لهذه الكلمة بهذا المعنى أصلا في الآرامية والعربية أي أنها ذات أصل« سامي .» وعرفت المدينة عند الآكديين والآشورين بالدين أي« القانون كما أن« الديان » يقصد بها في اللغة الآرامية والعبرية« القاضي » . وهو ما أشار إليه بعض المعاجم العربية من أن كلمة مدينة ترجع إلى كلمة دين، وهي مشتقة من كلمة"ودنته "، وتعنى ملكته، فهو مدين، مملوك

وتشير بعض التعريفات اللغوية للمدينة، إشارات واضحة إلى تحديد كيانها الاداري والاجتماعي، كقول ابن منظور إن المدينة هي: الحصن يبنى في أصطمة من الأرض، وكل أرض يبنى عليها حصن في أصطمتها فهي مدينة، والأصطمة معظم الشيء وتمامه.

وتجد الاشارة الى أنه يجب التفريق بين مفهوم المدينة الحالي(city) الذي يشير الى توافر تجمع سكاني وخدمات ومرافق وإدارة، ووسائل مواصلات...الخ. ومفهوم city Stateأو دولة المدينة، كما عرفها في الفكر اليوناني، والذي يحدده ارسطو في توافر قيّم خاصة بالمدينة...فكانت لكل "دولة مدينة" دساتيرها وقوانينها وألهتها[2]

3- تطوّر مفهوم المدينة في الحضارات القديمة

[2] سباين جورج، تطور الفكر السياسي، الفصل الأول دولة المدينة

إنطلاقا من الفهم القائل بالتأثير المتبادل والمتواصل للحضارات فيما بينهما والإستفادة الدائمة من التراكمات الكمية والنوعية لها ، والمتضمنة أيضا لطرق وأنماط التفكير، فإن الفكر الفلسفي يبقى دائما محط تطوير وإغناء، وعليه لا جدال في كون الفكر الإنساني السابق للفلسفة اليونانية رغم طابعه الأسطوري ، يمثل رافدا مهما إغتنى منه الفكر اليوناني، " فقد آخذ اليونانيون من الشعوب المختلفة، التي كانت تعيش في الشرق الأوسط التي قامت ثقافتها تحت تأثير كبيرة لحضارات الهلال الخصيب، والإنجازات العلمية ، والأصول الميتولوجية وفن التصوير الميثولوجي، بالإضافة إلى سلسلة كاملة من العناصر الثقافية التي أدرجوها في ثقافتهم"[3]

لقد طورت جميع الثقافات ميثولوجيا مشابهة عن المسعى البطولي، الذي يشعر فيه البطل بأن هنالك شيئا مفقودا في حياته أو في مجتمعه...لذلك يترك بيته ويتحمل مغامرات تحدي الموت، يحارب الوحوش يتسلق جبالا لا يمكن الوصول اليها، يعبر غابات مظلمة، وأثناء العملية، يعود الى ذاته القديمة، ويكتسب رؤى ومهارات جديدة، يجلبها معه الى شعبه ف بروميثيوس(*)[4] سرق النار من الالهة لأجل البشرية، فالأسطورة تخبرنا ما علينا فعله اذا اردنا ان نصبح بشرا كاملين، وعلى كل واحد منا بصبح بطلا في وقت ما من حياتنا.

لا يمكنك أن تكون بطلا،ما لم تكن مهيئا للتخلى عن كل شيء، ولا يوجد صعود الى الاعالي بدون سقوط وانحدار الى الظلمات، ولا حياة جديدة من دون الدخول في موت ما. نجد أنفسنا طوال حياتنا أننا في وضعية المواجهة وجها لوجه مع المجهول، حيث تعلّمنا أسطورة البطل ما علينا فعله، في نهاية المطاف علينا جميعا مواجهة طقس العبور الاخير الذي هو الموت[5].

هذا لا يعني أن شعوب بلاد مابين النهرين كانت مثلنا بالكامل، فدرجة حضور عناصر الغيب والتعالي ظلت عالية في وعي الناس، أثناء ممارستهم لأعمالهم اليومية. وقد اعتبرت كل مدينة عاصمة أرضية لأحد الآلهة، وكل مواطن ابتداء بالحاكم، وانتهاء بالعامل البسيط، وهو خادم ونصير ل(**إنلل وإنكي وإنانا**)[6]. ظلّ الناس ملتزمين بالفلسفة القديمة، التي ترى أن كل ما على الارض نسخة مطابقة لحقيقة سماوية.

---

[3] عمر محمد صبحي عبد الحي ، الفكر السياسي ، وأساطير الشرق القديم ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط1، 1998 ، ص 104

[4]) ارمسترونغ، كارين، تاريخ الاسطورة، تر، قانصو، وجيه، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط1، 2008، ص36

(*)شخصية اسطورية، تظهر في ملحمة هزيود، تقوم بسرقة النار من الإله زيوس ويعطيها للبشر لينتفعوا بها

[5]) ارمسترونغ، كارين، ص37

[6]) ارمسترونغ، كارين، ص6

شكلت الالهة المحور الأهم في أساطير الشرق القديم، يكاد يكون دورها مطلقا، وطاغيا، على دور الانسان، صاحب الدور الثانوي، فهو لا يمتلك القدرة على التأثير في مجرى الأحداث، لأنه لا يمتلك القدرة التي تمتلكها الآلهة، التي بيدها كل شيء، وهي التي تقرر مصيره[7].

3-1- في بلاد فارس:

يرى "مرسيا ايلياد" أن الاسطورة هي الناظم الأكثر قوة في رسم لوحة الفكر الفلسفي لبلاد فارس، لاسيما قبل الزرادشتية، فالمعتقدات الفارسية القديمة تنطلق برأيه من أن "**الاله اهورا مزاد**" خلق البقرة الاولى، كما خلق الانسان الاول في مركز العالم، وتشير الى أن الفردوس الذي خُلق فيه آدم من الطين موجود في وسط الكون[8]. فالأسطورة في الزرادشتية هي الناظم الروائي المتخيل للنص، كناقل للنظم المعرفية، عبر لغة وسيطة بين النص والملتقى. أما الدين فيتجلى في صيغة العقيدة (الشريعة)عبر توسطات(كهنوتية).

أدت الالهة دورا مهما في الابقاء على قاعدتها الشعبية، عن طريق اضفاء صفة الالوهية على بعض من بشر، ممن يملكون امكانية الحيازة على النص المعرفي فكرا وتطبيقا. ومن هنا يتميز الفهم الاسطوري الزرادشتي بنقطة تمايز معرفية، وهي ان العالم ما فوق الطبيعي لا يختلف عن العالم الطبيعي، فهو في حالة صراع بين الالهة، وهذا ما انعكس على البشر، فالطبيعة عبر هذا التصوّر جزء من قانون ما فوق الطبيعة، وبالتالي ما يحدث في الاعلى يحدث في الاسفل[9]

لقد جاء التنظيم في المجتمع، يعتبرا عن التنظيم الديني وقانونيته في الزرادشتية، وحَكَم القانون الديني، القانون الاجتماعي الوضعي، وبالتالي فإن المجتمع بأفعاله يقوم على مفهوم المطابقة، بين قوانين وأوامر، ونواهي الاخلاق الزرادشتية، وقوانين المجتمع المتماهية معه...وكانت الأسرة لديهم أقدس النظم الاجتماعية، لأسباب تعود الى التشكيل الطبقي والاجتماعي لمجتمع بلاد فارس([10]).

ترى الزرادشتية أن" النور والظلمة أصلان متضادان، وكذلك يزدان وأهريمان، وهما مبدأ موجودات العالم، وحصلت التراكيب من إمتزاجهما، وحدثت الصور من التراكيب المختلفة، وأنَّ الله خالق النور والظلمة ومبدعها، وهو واحد لا شريك له، ولا ضِدَّ ولا نِدَّ، كما أنَّ الخير والشر، والفساد والصلاح، والطهارة والخبث ، وكل شيء يضاد شيء آخر، إنَّما حصلت من إمتزاج النور والظلمة، وإنهما لو لم يمتزجا

---

[7]) العابو عبد الرحمان، البطولي في اساطير الشرق القديم وملامحه، رسالة دكتوراه،قسم اللغة العربية، جامعة سان كليمو(S/ clement université)،2010 ،ص47

[8]) حسن محمد، تيارات الفلسفة الشرقية،منشورات دار علاء الدين، دمشق، (د.ط)،، 2008، ص13،15

[9]) حسن محمد، ص17

[10])حسن محمد، ص27

لما كان وُجُود للعالم ، وهما يتقاومان و يتغالبان إلى أنْ يغلب النور الظلمة ، والخير الشرَّ ، ثم يتخلص الخير إلى عالمه ، والشر ينحط إلى عالمه ، وذلك هو السبب الخلاص ، والله سبحانه وتعالى هو الذي مزجهما ، وخلطهما لحِكَمة رآها في التراكيب) [11] .

والخلق لدى الزرادشتية على مستويين: الخلق على المستوى المتافيزيقي. والخلق على المستوى الكوني الفيزيق. فبعد خلق إله الخير **لأهريمن**، يخلق الارواح: "لقد أتيت من العالم السماوي، ليس من العالم الارضي، بدأت التكون. لقد ظهرت اصلا الحالة الروحية،حالتي الاصلية ليست الحالة الارضية[12].

اما العالم الفيزيقي فقد خلقة إله الخير من النار، وأنشأ من النار الهواء، ثم الماء من الهواء، والتراب من الماء. وهي العناصر الاولى المكونة للعالم المادي. ومن هذه العناصر أوجد السماوات، ثم الجمادات، ثم النباتات، ثم الحيوانات، ثم الانسان، وبعد الخلق أعطى الروح لهذه المخلوقات، وإليها نزل "**اهريمن** "إله الشر، ليبدأ الصراع بين الروح الخيّرة والروح الشريرة، وخلاص هذا العالم يتم بالقضاء على الشر، أي على **اهريمن**.

لم ينظر زرادشت الى الانسان نظرة سلبية .بل اعطاه امكانية الفعل و الارادة في الاختيار .فهو لديه القوة بواسطة الفعل في صراعه بين اله الخير والشر في حياته اليومية. يقول زرادشت متسائلا "هو الذي في البدء، بواسطة العقل، قد ملأ السموات المباركة بالضياء، هو الذي خلق "الحق" تبعا لمشيئته، بواسطته يساند العقل الخير . أنت أيها الرب الحكيم، قد عرفتك كأول وأخر، كأب للعقل والخير، عندما أدركتك بعيني، كخالق صادق للحق، وكسيدا في أعمال الوجود...أيها الحكيم خلقت لنا منذ البدء بعقلك، الكينونة والضمائر، والارادات،حيث أنك قد أعطيت جسدا لروح الحياة، حيث أنك قد خلقت الأعمال والكلمات، كي يقرر الانسان بحرية([13]) .

ان الإنسان لا يساهم في خلاص نفسه فقط، بل في خلاص الاله "**اهورا مزدا**"اله الخير ،المحدود في وجوده بالمكان "**بأهريمن** "بعد الخلق، لكون "**اهريمن** "من ذات الله لا من ذاته نفسها، وبالتالي فان اختيار الإنسان الخير ونبده الشر، يؤدي الى القضاء على "**أهريمن** "وموت "**اهريمن**" إله الشر، وخلاص اله الخير من شرط وجود **أهريمن** فيخرج من محدودية المكان الى لا محدودية الزمان والمكان معا. إن خلاص العالم عند زرادشت يعني تغيير العالم. وأول مضحّ كان زرادشت ، ولعل ذلك من مفاهيم الوجود الصوفية في الزرادشتية[14]

(3) ، الشهرستاني، الملل والنحل، تعليق : أحمد فهمي محمّد، ار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1992، ج2، ص264 وما بعدها

[12]) حسن محمد، ص32

[13]) حسن محمد، ص31

[14]) المرجع نفسه، ص33

2-3 في بلاد ما بين النهرين:

ارتبطت السلطة في بلاد ما بين النهرين بالتقديس حيث كان الحكام يجسدون الآلهة بصورة أو بأخرى، هذا التقديس يبدأ من تمثيل الحاكم للآلهة ، مرورا بتفويض الآلهة للحكام، وإنتهاءا بتأليه الحكام أنفسهم ([15])،

لقد كان لهذا النمط من الممارسة السياسية، آثار سلبية ولّدت التسلط والاستبداد ،فالآلهة في الفكر السياسي العراقي هي التي تكوّن المدن، وهي التي تعيّن حكامها، فالملك ما هو إلا مرآة للإله، نقرأ ذلك في مقدمة تشريع حمورابي، الذي يبدأ بمقدمة يمجّد فيها الملك، المهمة التي القتها الالهة على عاتقة، من نشر العدل في الارض ، والدفاع عن الفقير ضد الغني، وعن التقى ضد الآثمين وتلى ذلك مجموعة القوانين المنظمة للحياة الاجتماعية. وأخيرا خاتمة يمجّد فيها الملك مرة أخرى عمله ويرجو أن يجد فيه المضطهدون كلمات عزاء وعدل. ويبدو المجتمع البابلي في قانون حمورابي منقسما الى ثلاث طبقات:

الاشراف: وهم يتمتعون بحرية كاملة وبجميع حقوقه الرعوية وامتيازاتها.

مشكين: ويمكن أن نسميهم "العامة"، وكانوا أحرار ولكنهم كانوا يخضعون لقيود قانونية معينة، ولاسيما فيما يتعلق بتحويل الملكية المنقولة. واخير طبقة "**العبيد**"

هكذا فمن هذا المصدر الإلهي للسلطة، كان الإنسان العراقي قديما، ينظر للملوك، نظرة القداسة والتميز عن باقي البشر، ذلك لأن السلطة السياسية أساسا للآلهة، التي تودعها الملوك من البشر المميزين، وحتى عندما كان بعض الملوك يتصفون بصفة الألوهية، فإنهم كانوا دائما ينسبون الفضل للآلهة .

الأكيد هو أن الفكر السياسي آنذاك لم يتبلور بالشكل الذي يمكن معه إلتماس معالم الدولة وحدودها، وواجباتها تجاة رعاياها، كما لم يتبلور التفكير في الشأن الإنساني بوضوح ، وهذا يعود بالأساس إلى الإنشغال بالتفكير في أصل الكون، وقصة الخلق، التي ترويها لنا ملحمة ، **إينوما إيليتش**- في طابع تغلب عليه الأسطورة ، أما الشأن الإنساني فلم يتم التطرق إليه في أبعاده الدنيوية، المتعلقة بالجوانب الاجتماعية والسياسية والإقتصادية، بل ثم تناوله في صبغة أسطورية، ترى أن وجود الإنسان مرتبط، بحاجة الآلهة لمن يخدمها ويؤمن حاجاتها.

لقد آمن الإنسان العراقي ، وآذعن لهذه السلطة، من منطلق إيمان أعمق تولّد بمرور الزمن، قوامه، أن الخضوع سواء كان لسلطة الإلهية مطلقة، أو للسلطة المقدسة للملوك أمر ضروري، ومبرر

[15] إبراهيم أحمد شلبي ، تطور الفكر السياسي، الدار الجامعية ، (ب ت) ، (ب ط) ، ص 31

لأنه " إذا كان الإنسان قد خلق ليكون عبدا وخادما للآلهة، فإنه يعمل ويطيع ويتعبد للوصول للخير، المتمثل في الصحة وطول العمر ، والمركز المرموق بين الجماعة، والثراء، والأبناء الكثر ([16]).

استطاعت هذه الأساطير أن تحدد الغايات الأساسية من وجود المجتمعات ، وهي تحقيق الخير، والعدالة للجميع، حسب تعبير حمورابي، الذي ذكر في شريعته أن الغاية والهدف الذي كلّف به من طرف الآلهة يكمن في ما يلي:

- **لأوطد العدل في البلاد**
- **لأقضي على الخبث**
- **لكي لا يستعبد القوي الضعيف**
- **لكي لا يظلم القوي الضعيف**
- **ولكي ترعى العدالة اليتيم والأرمل .... عسى أن تسود عدالتي البلاد([17])**

لقد "كان الدين هو العامل المسيطر في كل ركن من أركان الحياة الانسانية، وكانت نظرة إنسان أرض الرافدين الى الادب والقانون والفن، نظرة الشرق الادنى كله قديما، فلم يكن ينظر اليها إلا في نطاق الدوافع الدينية. وكانت هذه الدوافع متغلغلة في كل مظهر من مظاهر الحياة، ولعلّ هذا ابرز خصائص الحضارة في الشرق الادنى القديم، فكان الدين خلاصة القيم الانسانية"[18] . فكان لكل مدينة إله يحميها، وكان لكل مقاطعة مجموعة آلهة، بل كان لكل أسرة آلهتها المنزلية حيث تقام لها الصلاة، وتصّب لها الخمور كل صباح وكل مساء، بل كان لكل فرد ربّ يحميه، وفيما بعد أخذ عدد الالهة البابلية يقل، ومن هنا اصبح "**مردوخ**" اله بابل الاول بل كبير آلهة البابلين[19]

3-3 في مصر:

يمثل النظام الاجتماعي في مصر القديمة، مظهرا من مظاهر النظام الكوني، والملكية معنية منذ البداية بالوجود في العالم، فالإله كان الملك الأول، ونقل هذه الوظيفة وخلق الفرعون، الأمر الذي يكرّس الملَكية كمؤسسة إلهية، فالفرعون هو النموذج لكل رعاياه، وعمله يضمن استقرار الكون والدولة، والفرعون بالتأكيد هو الصانع الوحيد لأحداث التاريخ المتغيرة، وهو التجسيد الفعلي لل" **الماعت**"،وهذا التعبير يترجم بـ(الحقيقة)،ولكن المعنى العام هو النظام الجيد وبالتالي الحق والعدالة([20]).

---

[16] المرجع نفسه ص 166

[17] المرجع نفسه ص 168

[18] موسكاتي سبتينو، الحضارات السامية القديمة، تر، يعقوب بكر،ص74

[19] نعمة حسن، موسوعة ميثولوجيا واطير الشعوب القديمة، دار الفكر اللبناني، ص76

[20] ميرسيا إلياد، تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية، تر، عبد الهادي عباس، دار دمشق، ط1987،1، ص 120

يعد مفهوم "**الماعت**" من المفاهيم المركزية في الحضارة المصرية القديمة. مفهوم تعرّض للكثير من التكثيف والانزياحات الدلالية، حتى لا نكاد نعثر له على مقابل معين. ورغم هذا يمكن القول أن بروز هذه المفهوم ارتبط بنشأة الدولة القديمة، المستندة الى ملكية مركزية، ونظام سياسي وظّف هذا المفهوم لتبرير سيطرته والتمكين لحكمه، خاصة وأن فكرة **الماعت** كانت تدعو الى الاستقرار والسمع والطاعة، في ظل السيادة الفرعونية.

يَفْهم المصري القديم تحث كلمة **ماعت** الكثير من المعاني، والقيّم الرفيعة التي ترتبط بالحق والحقيقة والصدق، والعدل والعدالة، والنظام والانتظام. وكانت **الماعت** بالنسبة لهم هي ناموس الحياة، و منهاجها السليم، الذي وضع من قبل الاله الاكبر "**رع**"، ليكون فيه خير البشر والكون. وتدل كل النصوص والشواهد الأثرية على أن "**الماعت**، **هي**" اتباع السلوك السليم، والنهج القويم، والخلق الكريم، لكل من أراد أن يسير في طريق الحق والفضيلة، أو أن يستقيم([21]).

ويكون الشخص متفقا ومفاهيم **ماعت**، اذا التزم بالأعراف والأخلاق و الاداب المقررة سياسيا واجتماعيا...أما الظالم والمتآمر والمنتهك للحرمات والمخّل بالنظام، والذي يتهجم على النظام الاساسي للأشياء، فهو ... المناقض لتعاليم "**ماعت**" ومفاهيمها([22]). وعلى الصعيد الكوني، تؤدي دورة **ماعت** الى حدوث التوازن الكوني...ف**ماعت** هي الطاقة التي تغذي الكون بأكمله، كما تغذي الشمس التي تمدها بالتنفس...ومن هنا جاءت أهمية الطقوس الفرعونية الخاصة بتقديم **الماعت** الى الشمس...فمن خلال هذه الطقوس يشارك الفرعون في النظام الكوني، بينما الكائنات البشرية لديها نداء باطني و ارشاد رباني وذلك بفضل عضو في الجسد هو القلب، حيث يساهم في تنظيم جيد للعالم الصغير وهو الانسان([23])

لقد كان الملك في مصر الفرعونية إلها في الحياة وبعد الموت، فالأسطورة المصرية تقول" أنه يصعد إلى السماء، ليتحد بقرص الشمس ويندمج مع أبيه "**راع**". وهذا التأليه في الحياة وبعد الموت، ليس نزوة من نزوات ملك مستبد، أوجب على رعاياه الخانعين الأخذ بهذه الفكرة، بل الواقع يؤكّد أن هذه الفكرة تحوّلت إلى عقيدة راسخة، تنبع من إيمان ثابت، بأن الفرعون إله عظيم، دائم الاتصال بالآلهة الكبار، له القدرة على السيطرة على ظواهر الطبيعة، وتسخيرها لما فيه خير مصر.

يمثل النظام الاجتماعي في مصر القديمة، مظهرا من مظاهر النظام الكوني، والملكية معنية منذ البداية بالوجود في العالم، فالإله كان الملك الأول، ونقل هذه الوظيفة وخلق الفرعون، الأمر الذي يكرّس

---

[21] مانسيني، آنا، ماعت، فلسفة العدالة في مصر القديمة، تر، رفعت عواد، الهية المصرية العامة للكتاب، ط1 ،2009، ص7

[22] المرجع نفسه، ص92

[23] المرجع نفسه، ص93

الملكية كمؤسسة إلهية، فالفرعون هو النموذج لكل رعاياه، وعمله يضمن استقرار الكون والدولة، وهو الصانع الوحيد لأحداث التاريخ المتغيرة،

وهذا التأليه في الداريين الفانية والباقية، لم يكن عنوة وإنما الصبغة الأسطورية التي صبغت بها أعماله، هي ما أكسبه هذا الوصف" فالكلمات التي ينطق بها " موحيات " تخرج من فم إله، وهذا الإله يبرئ ويبدع ويخلق: فكل ما يتفوه به صاحب الجلالة، يجب أن يتم ويتحقق بالحال، فمشيئة الملك وإرادته هي القانون، ولها ما للعقيدة الدينية من قوة، وأقواله لها من الحتمية بحيث لا يستطيع المصري إلاّ التسليم والخضوع لأوامره ونواهييه، مهما بدت له قاسية لا تحتمل أو بغيضة لا تطاق"([24]). "أفليس له الفضل ، في إخصاب المواسم، وإزدهارها، لأنه إله النيل ، مصدر كل إزدها "([25])، وعندما كان فرعون يعتلي العرش، كان على الناس أن يفرحوا ويبتهجوا، لأن أحد الأرباب أقيم رئيسا على كل البلاد، لقد كان الفرعون موضوع عبادة الجميع وتكريمهم، والكل يمرغ جبينه أمامه، ويتشرف أسعدهم بتقبيل قدميه .

4-3 في الصين:

مبدئيا لا يختلف الفكر السياسي عن نظيره في الحضارات القديمة، حيث أن مصدر السلطة هو السماء، فالملك مفوض من السماء لتسيير شؤون البشر ، ولهذا سميت مملكته (تيان – شان) أي المملكة التي تحكمها السماء، لقد كانت الطبقة النبيلة تعتبر نفسها من سلالات أبطال أسطوريين أسبغت على نفسها صفات إلاهية، وكانت تعتقد بأن أسلافها يراقبون وهم في السماء، ويحددون مصائر أحفادهم، إنطلاقا من ذلك ، غدا تقديس الأسلاف الأسطوريين ، الذين يعيشون في مكان ما في السماء، المبدأ الأساسي الذي تقوم عليه علاقة الأبناء بأسلافهم التاريخيين.

علما أن الإيمان بالترابط بين الأحفاد والأجداد، وضّفَّ لصالح الطبقة الأرستقراطية، وفق المبدأ القائل: بأن أنباء الطبقة الأرستقراطية يستمدون سلطانهم وقوتهم، من سلطة وقدرة أسلافهم القادرين، وهم في السماء، على التأثير في المياه على الأرض، هكذا وبما أن أبناء هذه الطبقة يختلفون بأصولهم وقدرتهم وسلطانهم عن عامة الناس، الذين يفتقرون للأصول المقدسة، وبالتالي يفتقدون للرعاية والتوجيه من السماء، فقد وجب على أبناء هذه الطبقة الأرستقراطية استلام زمام كل الأمور وتوجيه العامة، الذين عليهم تنفيذ ما تراه هذه الطبقة النبيلة ([26]).

24

25

26عمر محمد صبحي عبد الحي، الفلسفة والفكر السياسي في الصين القديمة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، 1999، ص ص 50،51

تقول الأسطورة- بعد ما تذكر كيف أن ملك تشانغ كان فاسقا لا يحكم بالعدل- عند هذه المرحلة لجأت "السماء" إلى حاكم حقيقي، فأصدرت قرارها الواضح المفصّل إلى"**تانغ الموفق**"، الذي عاقب وقضى على حاكم هسيا"([27]). لم تكن السماء راغبة في الخلاص من حاكم هسيا أو حاكم شانغ، لكن كان حاكمكم....فاسقا تماما، وكان يسخر من الأوامر السماوية..كان كسولا ومتباطئا واستهان بأعمال الحكومة، ولم يقدم القرابين الخاصة، ولذا أنزلت السماء به الدمار، ثم بحثت بين أقاليمكم العديدة، عن شخص قد يكون متيقظا لأوامرها، ولكن لم يكن هناك أحد يستطيع أن يفعل هذا، ومع ذلك فهناك ملكنا "تشو"، الذي كان يحسن معاملة الجماهير، وكان فاضلا، وفي عناية كان يرأس تقديم القرابين إلى الأرواح، وإلى السماء. ولذا أمرتنا السماء أن نغتنم من فضلها وكرمها، واختارتنا ومنحتنا القرار الممنوح" لتشانغ"، لنحكم أقاليمكم العديدة([28])،

إن تفويض السماء، وانتدابها الملوك لحكم الناس، إنما يستهدف الخير والهناء لهم، فإذا لم يتقيد الملوك بعمل الخير، وظلموا أو استبدّوا، وفشلوا في مهمة الحكم الملقاة على عاتقهم، فإن ذلك يعني فقدانهم حق الحكم، وبالتالي تغيّر السماء حق التفويض أو الانتداب إلى ملك آخر([29])، لكن هذا القول لا يعني حق الشعب في تغيير حكامه، بل حق الاعتراض كان مكفولا فقط لطبقة الإداريين، الذين استخدموا العرافين ليتحكموا في كل شيء.

هكذا يتبين لنا أن المسألة السياسية كانت محكومة بالأسطورة، فأوامر السماء تفوّض وتعزل الحكام، فهي التي تمسك الكون بأسره، وتمنح مسؤولية تنظيمية على الأرض لابنها **(تين،تزو)** (ابن السماء)، وهي التي تزوده بالتفويض السياسي القوي، الذي يلزم رعاياه بالولاء له، مما يعطي للملك سلطة سياسية على رعاياه، الذين يكلّفون بالمناصب عن طريقه. هكذا وبما أن الملك يحكم بتفويض السماء، فكذلك يفعل أمراء الإقطاع في مملكته، حيث تكون لهم سيادة محلية تحت إشراف الملك، وهم بدورهم يفوّضون الإقطاعيين التابعين لهم للقيام بواجبات معينة، وهذا التسلسل كله يستند من قمته إلى قاعدته على تفويض السماء، وهذا ما حفظته لنا بعض النصوص حيث تقول إحداها:

- **بهدوء جليل،و انسجام مهيب.**
- **يسجل الوزراء،والفرسان الحاضرون**
- **فضائل سيدهم المنشئ.**

---

27 هـــ،ج ،كاريل، الفكر الصيني من كونفوشيوس إلى ماوتسي تونغ، تر، عبد المجيد سليم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (د،ط)، 1998، ص 30

28 المرجع نفسه، ص33

29 عمر محمد صبحي عبد الحي،الفلسفة والفكر السياسي في الصين القديمة ،مرجع سابق،ص 52

- **المتكفل بنا من قبل السماء.**
- **الملك العظيم .ون.**
- **آه يا مولاي،لعلك تجد و أنت في جلالك العظيم.**
- **في العمل المتزن،والكلمة المهذبة.**
- **مديحا لا يغضبك.**
- **جليل ولا حد لجلاله.**
- **هو تكليف السماء ([30]).**

إن الدور الكبير،الذي لعبته الآلهة في حياة الإنسان الصيني، وطريقة تفكيره، دفعت الطبقة الأرستقراطية العسكرية في فترة نشاطها، إلى تمثل الدور الكبير الآلهة عن طريق إحلال صفات الآلهة على نفسها، بحيث طال التقديس القادة العظماء، حتى بعد موتهم.

من الناحية الاجتماعية، كان نظام الطبقات هو السائد في الصين، فقد أكدته الوثيقة الدستورية التي قدمها المشرع"**جو**". وهذه الطبقات هي:

- إمبراطور نائب عن الإله (السماء).
- أعيان بحكم المولد أو التربية.
- الشعب يعيش في أسر أبوية يتمتع بالحقوق المدنية، ولكن لا رأي له.

من الواضح تماما أن النظام السياسي، يبدأ من الملك (ابن السماء) وينتهي عنده، فالملك لا يمكن أن يخضع لقواعد تسمو عليه،أو أن توضع قيود على سلطته، فهو إله أو ابن إله، أو منفذ لمشيئة السماء، فكيف يمكن أن تكون هناك حدود لسلطته؟و لهذا لم يكن من الممكن لأي بشر أن يناقشه أو يشكّك في حقوقه أو سلطانه([31]).

5-3 في الهند:

تتغذى الفلسفة الهندية من موروث ميثولوجي ثيولوجي متنوع أدى دورا كبيرا في بلورة رؤى الإنسان الهندي للطبيعة والعلاقات الإجتماعية .

لقد تطورت الفلسفة الهندية تطورا هائلا ومعقدا، قد يكون تاريخ تطورها أطول من تاريخ أية فلسفة أخرى، مع العلم أن الكثير من معالم هذه الفلسفة يشوبه الغموض، والضبابية وعدم الوضوح،

---

[30] جنري بارندر، المعتقدات الدينية لدى الشعوب، تر، إمام عبد الفتاح، عالم المعرفة، 173، مارس 1993، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ص 230

[31] إمام عبد الفتاح إمام، الأخلاق والسياسة، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، (د. ط)، 2001، ص149

فكل ما نعرفه عن هذه الفلسفة يكاد يكون بطرق غير مباشرة، سبب ضياع الكثير من النصوص الأصلية من جهة، وعدم معرفتنا بفلاسفة الهند من جهة ثانية، فنحن نعرف عن الفلسفة الهندية أكثر مما نعرف عن فلاسفتها، لكننا في عرضنا هذا سوف نركز على إبراز مكانة الإنسان في المنظومة الإجتماعية والسياسية.

لا يختلف الفكر الهندي عن غيره من أفكار الحضارات الشرقية القديمة ، التي تجعل من الإله المركز والمتحكم في الكون، فهو الخالق له، كما أنه المسؤول عن مصيره وصيرورته، وهو الذي يتحمل مسؤوليته. أما طبيعة المجتمع الهندي فقد "تضمن الفكر السياسي الهندي على النظريات العضوية للمجتمع والدولة، فالمجتمع وفق العناية الإلاهية مكون من طبقات مختلفة غير متكافئة، لكل منها وظيفتها، بغية تحقيق الرفاهية والسعادة العالمية، والدولة وحدة ذات أعضاء متميزة، كل له وظيفته المتلاحمة مع الأعضاء الآخرين "([32])

يقوم الاعتقاد البراهمي على أساس التفاوت وعدم وجود مساواة، وبموجب ذلك ينقسم المجتمع إلى طبقات أربع، يتحدد مكانها الاجتماعي والسياسي، من درجة ومكان خلقها، وتقع على عاتق الفرد واجبات معينة، وتترتب له حقوق وفقا لمبدأ الطبقة. ولأن الواجبات والحقوق محددة سلفا، لكل طبقة من الطبقات الأربع، فإنه ما أن تعرف طبقة فرد ما حتى تعرف واجباته وحقوقه. والخطيئة والشر ينجمان عندما لا يتم القيام بالأعمال الضرورية لرفاه الكل. والواجبات المشتركة بين عدة طبقات هي الأعمال التي يتعين على المرء القيام بها لتجنب الخطيئة. فقد جاء في قوانين" مانوا"بصدد خلق برهما للكائنات: "...ثم خلق البراهمي من فمه والكاشتريا من ذراعه والو يشيا من فخذه والشودرا من رجله،فكان لكل من هذه الطبقات منزلته على هذا النحو[33].

أ)-طبقة البراهمة: هم صفوة المجتمع الهندي، والطبقة التي تستأثر بالامتيازات الاجتماعية والسياسية، وهم من الآريين أصلاً، ويحتلون المكانة الأولى في النظام الإجتماعي والسياسي. فكل"ما في العالم ملك البراهمي، وللبراهمي حق في كل موجود...ثم لا يجوز أن يكون محل مساءلة، فإذا افتقر حق له أن يتملك مال الشودري، الذي هو عبده،من غير أن يجازيه الملك على ما فعل، بل إن البراهمي لن يدنس بذنب حتى ولو قتل العوامل الثلاث([34])

[32] بوعرفة عبد القادر، مرجع سابق ، ص، 70

[33] إبراهيم أحمد شلبي، تطور الفكر السياسي، مرجع سابق، ص 53،54

[34] إبراهيم أحمد شلبي، المرجع نفسه ص 54

ب)-طبقة الكاشتريا: وهي من الجنس الآري وتحتل الدرجة الثانية من درجات التنظيم الإجتماعي، تتألف من القضاة والعسكريون، والقائمين على إدارة شؤون المجتمع.([35]).

ج- طبقة الوشيا: وهم من التورانيين أصلاً وتحتل الدرجة الثالثة من درجات التنظيم الإجتماعي، تتألف من التجار والمزارعين ووظيفتهم الرئيسية، إنتاج السلع الضرورية للحياة التي يطلبها المجتمع"

د- طبقة الشودرا: وهم سكان الهند الأصليين، مهمتهم كما حددتها نصوص الكتاب المقدس " **منَّوسَمَرتي** " تكمن في خدمة الطبقات الثلاث السابقة...وتجدر الاشارة الى وجود فئة **المنبوذين**، وهم اصحاب المهن المبتذلة، وتعتبر أحط الطبقات مقاماً وهم لم يدخلوا التقسيم ولم يكونوا إحدى طبقات المجتمع.

إن النظام الطبقي الذي عرفته الهند، يؤسس للظلم والإستغلال، ولكن الأمر لم يكن كذلك آنذاك، فالمرجعية الأسطورية لهذا التقسيم كانت هي الضامن الأساسي لعدم الإحتجاج، والقبول بالأمر الواقع، فالميثولوجيا الهندية تنص على أن خير المجتمع يتم دعمه إذا كانت هناك طبقات منفصلة من الأفراد، تؤدي كل منها المهام المختلفة التي تقتضيها الحياة الخيّرة في المجتمع، وفضلا عن ذلك، فإن هذا التصنيف سيكون في مصلحة الفرد، من حيث أنه يسهل عليه تحقيق ذاته والوصول إلى النفس الحقة، إذا ما انخرط المرء في تلك الأنشطة التي تناسبه بشكل خاص، من حيث الحالة المزاجية والإستعداد والمقدرة الطبيعية ([36])

ما يمكن قوله بعد إستعراضنا لنماذج من الأفكار السياسية في الحضارات الشرقية هو أن النزعة الثيولوجية قد سيطرت على هذه المجتمعات إنطلاقا من فكرة الأصل المقدس، الذي يفوق البشر في تصورهم للنظام الإجتماعي، والسياسة والسلطة القائمة، فكل شيئ نظمته الآلهة وهي حاضرة في كل تمفصلات الحياة، فالمؤسسات الإجتماعية والعلاقات القائمة، كانت تقدمها هذه الأسطورة أو تلك، مبررة أصلها ووجودها، سعيا لديمومة النظام القائم.

4- خاتمة:

[35] جون كولر،مرجع سابق،ص74

[36] جون كولر، الفكر الشرقي القديم، تر، إمام عبد الفتاح إمام ، سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة ، الفنون والأداب ، الكويت ، رقم 199 سنة 1995 ، ص 73

لقد اوغل العقل البشري في التقدم التقني وأصبح التراجع عن مكتسبات الحضارة المعاصرة ضربا من الوهم، حتى وان كان الجميع يتفق بان الانسان المعاصر كسب كل شيئ وخسر نفسه، خسر حميمية الحياة، سكينتها ، انها لحظة اقتلاع الانسان بعيدا عن نفسه.

إن الاشتغال الفلسفي على سؤال المدينة ليس وليد لحظة التي تعيشها البشرية اليوم، بل هو مبحث قديم نلامس ملامحه الاولى في متون النص السفسطائي المتمرد على الواقع الاثينيني آنذاك، وحديثا يمكن الاشارة للكثير من الفلاسفة (نتشه، هورسل، هيدغر...الخ)الذين جعلوا من المعيش موضوعا فلسفيا دون ان تفقد الفلسفة قيمتها من جهة، ودون ان تبتلعها الحياة اليومية وانشغالاتها فتقع في الابتذال من جهة اخرى، **فالفلسفة- كما رأى ماركس- ليست خارجة عن الو اقع... وبما أن كل فلسفة حقيقية هي زبدة زمانها، فلا بد أن يحين الوقت الذي يكون فيه للفلسفة عقد مع و اقع عصرها، و علاقات متبادلة بينها وبين هذا الو اقع لا من الداخل فقط من حيث محتواها، بل و أيضا من الخارج من ناحية مظاهرها، وعندها لن تعود الفلسفة تضاربا بين المذاهب بل مجابهة للو اقع أي فلسفة العالم الحاضر"**

مراجع البحث:

- عمر محمد صبحي عبد الحي، الفكر السياسي، وأساطير الشرق القديم ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط1، 1998.
-ارمسترونغ، كارين، تاريخ الاسطورة، تر، قانصو، وجيه، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط1، 2008.
- العابو عبد الرحمان، البطولي في اساطير الشرق القديم وملامحه، رسالة دكتوراه، قسم اللغة العربية، جامعة سان كليمو(S/ clement université)،2010 .
- حسن محمد، تيارات الفلسفة الشرقية، منشورات دار علاء الدين، دمشق، (د.ط)، 2008.
- الشهرستاني، الملل والنحل، تعليق : أحمد فهمي محمد، ار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1992، ج2، ص264 وما بعدها
- إبراهيم أحمد شلبي، تطور الفكر السياسي، الدار الجامعية ، (د.ت) ، (د. ط).
- موسكاتي سبتينو، الحضارات السامية القديمة، تر، يعقوب بكر.
- نعمة حسن، موسوعة ميثولوجيا واطير الشعوب القديمة، دار الفكر اللبناني.
- ميرسيا إلياد، تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية، تر، عبد الهادي عباس، دار دمشق، ط1987،1
- مانسيني، آنا، ماعت، فلسفة العدالة في مصر القديمة، تر، رفعت عواد، الهية المصرية العامة للكتاب، ط1 ،2009.

- عمر محمد صبحي عبد الحي، الفلسفة والفكر السياسي في الصين القديمة بمؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، ط1، 1999.
- هـ،ج ،كاريل، الفكر الصيني من كونفوشيوس إلى ماوتسي تونع، تر،عبد المجيد سليم الهيئة المصرية العامة للكتاب، (ب،ط)، 1998.
- جنري بارندر،المعتقدات الدينية لدى الشعوب،تر،إمام عبد الفتاح،عالم المعرفة رقم 173،ماس 1993،المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب،الكويت.
- إمام عبد الفتاح إمام،الأخلاق والسياسة،المجلس الأعلى للثقافة ،مصر (ب ط)، 2001
- جون كولر، الفكر الشرقي القديم، تر ، إمام عبد الفتاح إمام ، سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة ، الفنون والأداب ، الكويت ، رقم 199 سنة 1995 ، ص 73